مع بطل القطمون إبراهيم أبو ديَّة

وصل منذ أيام معدودة في بيروت من عمَّان المجاهد إبراهيم أبو دية - أو بطل القطمون كما لُقِّب - وهو الآن في المستشفى الأميركي في بيروت بانتظار عملية جراحية تنقذه من آلام شلل لازمه منذ أشهر، وأحدثته الجراح الخطرة التي أصيب بها في معارك الجهاد المقدَّس والتي تتعدَّى العشرين إصابة.

ويقبع الآن، بطل القطمون، الذي قاد معركتها ومعارك القسطل والشيخ جراح وبيت سوريـ[ـك وصوريـ]ـف ومعركة البيت الخالي، يقبع الآن في غرفته جريحاً، لا يتألم من جراح ومن إصابات ألزمته أشهراً وأعيت نطس الأطباء في القاهرة وعمَّان، بقدر ما يتألم لما أصاب بلده العزيز من ذلٍّ وعار، هذا البلد الذي فداه مع إخوانه المجاهدين بالدماء والروح. وهل هناك أغلى من النفس يجود بها إنسان فداء لوطن لا يرضى عنه بديلاً؟

من خلال آلامه وجراحه، ومن إيمانه الكبير بفلسطين خالدة إلى الأبد، ومن عقيدته الراسخة بأن العار الذي لحق بالعرب في فلسطين لا بدَّ أن يُمحى بالدم، انبعث صوته هادئاً، رصيناً وقوياً جباراً يقول لي بعزم وثبات "لا، لن نخسر فلسطين، وسنثب نحن أبناء فلسطين، مرة جديدة لإنقاذها من شر ما تعانيه. إنها معركة خسرناها ولكن الحرب بيننا وبين العصابات لم تنتهِ ولن تنتهي." وبعد أن سكت هنيهة قال: "أجل ربحوا المعركة ولكن الحرب مستمرة. وعلينا، نحن أبناء فلسطين، أن نزحف إلى أرضنا، ولو كنا عُزَّل من السلاح. فإما أن ننقذ الأرض، وإما أن يأخذنا اليهود معها جثثاً روت تربتها بدمائها الغالية."

بمثل هذه الروح حدَّثني بطل القطمون وهو طريح الفراش. فأكبرت فيه إيماناً راسخاً لم تنل منه الآلام، وأكبرت فيه عقيدة ثابتة وروحاً كبيرة لو لامست نفوس شبابنا، أبناء هذا الجيل، لشهد العالم أمة العرب، عزيزة كريمة لا تعرف الاستكانة ولا تفرِّط بكرامتها ولا بعزتها.

لنعُد إلى الماضي القريب، إلى ما قبل 15 أيار تاريخ دخول جيوش العرب إلى فلسطين لإنقاذها... لنعُد إلى تلك المرحلة من الزمن التي لا تزال بأمجادها بارزة للعيان تثبت بكل وضوح تهاوناً وتقصيراً أوديا بفلسطين وبشعب فلسطين... لنعُد إلى تلك المرحلة مع بطل القطمون ليحدِّثنا عن معركة القطمون وغيرها من المعارك ولنسمعه يقول: "لم يخسر المجاهدون معركة واحدة بالرغم من أننا كنا قلة وكانوا كثرة. كنا لا نملك سلاحاً وكانوا يملكون موارد لا ينضب لها معين."

*ظهرت في صحيفة **اليوم** (بيروت)، أعدَّها وفيق الطيبي ضمن "ريبورتاجات خاصة" (17 نيسان 1949).

- ومعركة القطمون؟

هنا لمعت عينا البطل أبو دية وقال: "لم نخسر هذه المعركة لولا الإنكليز... إذ إن استيلاء اليهود على منطقة القطمون يعد انتصار خدعة... كان عدد المجاهدين بقيادتي لا يتجاوز المئة وستين محصورين لا منفذ لنا. اليهود من أمامنا والإنكليز من ورائنا بدباباتهم ومصفَّحاتهم يرابطون فيما أسموه منطقة السلامة ب. يسمحون لمن يريد من العرب مغادرة المنطقة بالخروج ويمنعون أياً كان من الدخول... بينما كان عدد اليهود المهاجمين نساءً ورجالاً يربو على الخمسة آلاف، الطريق أمامهم مفتوحة ومواصلاتهم مع المستعمرات القريبة مؤمَّنة... وكان استيلاؤهم على دير القطمون النقطة الاستراتيجية الهامة، ما مكَّن مواصلاتهم. وبالرغم من أن بطريرك الروم الأرثوذكس سمح لنا بقصف الدير، إلا أنني أحجمت لأسباب منها الخوف من أن يؤخذ نسف الدير على غير معناه فتُشوَّه بذلك حركتنا، ومنها أيضاً أن نائب البطريرك كان لا يزال في الدير الذي احتمى فيه عدد كبير من النساء العربيات اللواتي لجأن من قرية المالحة إلى الدير."

"في هذه الظروف الصعبة جرت معركة القطمون وكنا وراء مراكزنا لا نتزحزح أربعة أيام بلياليها من 7 نيسان 1948 حتى الحادي عشر منه. لم يعرف المجاهدون أثناءها طعماً للراحة أو النوم ومع هذا استطعنا أن نردَّ هجمات اليهود واحدة بعد الأخرى، لقد كانوا يهجمون جماعات يريدون الاستيلاء على القطمون بأي ثمن كان. لم تردعهم خسارة ولم يوقفهم عدد قتلاهم ذلك الذي ناهز الخمسمائة قتيل... ومع ذلك، بقينا في مراكزنا نمنعهم من الاقتراب. ولكن الإنكليز تدخلوا وفرضوا الهدنة لمدة ساعتين، فجاءنا السيد أنور نسيبة ينقل إلينا أن الإنكليز يريدون هدنة لمدة ساعتين ليتمكَّن اليهود من نقل قتلاهم وجرحاهم، وإذا لم يقبل المجاهدون فإن مدفعية الإنكليز مستعدة لضرب مراكزهم المكشوفة وهكذا لم يكن من الرضوخ بدٌّ.. فرضخنا على مضض. وفي فترة الساعتين شنَّ اليهود هجومهم الكبير وتمكَّنوا من الاستيلاء على القطمون... قُتل أكثر المجاهدين وظلَّت جثثهم في حرج القطمون لم تُسلَّم إلينا حتى أن الصليب الأحمر الدولي رفض تسليم القتلى والجرحى..."

- ومعركة القسطل؟

"خسرنا معركة القسطل بسبب فقدان الأسلحة والذخيرة، فلو وصلنا من الدول العربية العتاد والذخيرة الذي طلبناه بإلحاح لتمكَّنا من الاحتفاظ بالقسطل، وبالتالي لاستسلم المئة ألف يهودي في القدس الذين أحكمنا طوق الحصار حولهم، ومنعنا عنهم كل اتصال مع "تل أبيب" أو المستعمرات المجاورة... خضنا المعركة والسلاح ينقصنا والعتاد والذخيرة تنضب منا شيئاً فشيئاً دون أن تُعوَّض. وعندما عاد المرحوم عبد القادر الحسيني إلى القدس في السابع من نيسان، علم أن اليهود رموا إلى المعركة بجميع قواتهم وطائراتهم أيضاً، فسارع وخاض المعركة، شبه أعزل من كل سلاح، فاستُشهد فيها بطلاً كريماً..."

"أما معركة الشيخ جراح التي حاولت فيها القوات الإنكليزية إنقاذ القافلة اليهودية فقد كانت ثأراً للمرحوم عبد القادر- وكنا في وضع يسمح لنا بتهديد الإنكليز إذا اقتربوا. وإزاء التهديد امتنع الإنكليز عن التدخُّل وهكذا واجهنا اليهود وجهاً لوجه فصفَّينا معهم بعض الحساب..."

ولنتحدث الآن عن إبراهيم أبو دية. هو شاب في التاسعة والعشرين من عمره ومن سكان قرية صوريف

وقد قاد معركتها الكبرى التي عرفت باسمها وكانت أولى المعارك التي وقعت في فلسطين وانتصر فيها المجاهدون انتصاراً مبيناً. انتقل المجاهد أبو دية بعد ذلك إلى منطقة القدس وعمل إلى جانب المرحوم عبد القادر الحسيني، وقد جرح في معركة القطمون كما جرح في معركة القسطل وقاد معركة الشيخ جراح ومعركة البيت الخالي وأصيب أثناءها بجراح أيضاً، وقد استسلم فيها اليهود بواسطة الإنكليز. وعلى الرغم من الإصابات الخطرة التي أصيب بها في كل مرة لم يكن يمضي في المستشفى أكثر من يوم واحد يخرج بعده ليقود معركة جديدة وليسجل انتصاراً جديداً على اليهود. وقد حاولت عصابات الهاغانا الإيقاع به بمؤامرات خسيسة ولكنَّه كان ينجو في كل مرة هازئاً بالموت مؤكداً بهزؤ وسخرية "أن رصاص اليهود لا يقتل". اشتُهر بقدرة وحنكة كبيرتين في إدارة المعارك وتحويلها كما يريد. والذي يُذكَر عن إبراهيم أبو دية أنه يَذكُر الخسارة التي كان يُمنى بها في معاركه بدقة دون تقليل أو زيادة

المجاهد ابراهيم أبو ديَّة

ريبورتاجات «اليوم» الخاصة

مع بطل القطامون ابراهيم ابو ديا

وصل منذ ايام معدودة الى بيروت ايمانه الكبير بفلسطين عربية خالدة الى من عمان المجاهد ابراهيم ابو ديا — او بطل القطامون كما لقب — وهو الان في المستشفى الاميركي في بيروت بانتظار عملية جراحية تنقذه من آلام شلل لازمه منذ اشهر، واحدثته الجراح الطرة التي اصيب بها في معارك الجهاد المقدس والتي تتعدى العشرين اصابة

ويقبع الان، بطل القطامون، الذي قاد معركتها ومعارك القسطل والشيخ جراح وبيت سوريف ومعركة البيت الخالي، يقبع الان في غرفته جريحاً، لا يتألم من جراح ومن اصابات الزمته الفراش اشهراً واعيت نطس الاطباء في القاهرة وفي عمان، بقدر ما يتألم لما اصاب بلده العزيز من ذل وعار، هذا البلد الذي فداه مع اخوانه المجاهدين بالدماء والروح وهل هناك اغلى من النفس يجود بها انسان فداء لوطن لا يرضى عنه بديلا؟

من خلال آلامه وجراحه، من الابد، ومن عقيدته الراسخة بأن العار الذي لحق بالعرب في فلسطين لا بد ان يمحى بالدم، انبعث صوته هادئاً، رصيناً وقوياً جباراً يقول لي بعزم وثبات «لا لن نخسر فلسطين، وسنثب — نحن ابناء فلسطين — مرة جديدة لانقاذها من شر ما تعانيه. انها معركة خسرناها ولكن الحرب بيننا وبين العصابات لم تنته ولن تنته

وبعد ان سكت هنيهة قال:

«أجل ربحوا معركة ولكن الحرب مستمرة. وعلينا — نحن ابناء فلسطين — ان نزحف الى ارضنا، ولو كنا عزل من السلاح. فاما ان ننقذ الارض واما ان يأخذنا اليهود معها جثثاً روت تربتها بدمائها الغالية

بمثل هذه الروح حدثني بطل القطامون وهو طريح الفراش. فأكبرت فيه ايماناً راسخاً لم تنل منه الالام، وأكبرت فيه عقيدة ثابتة وروحاً كبيرة، لو لامست نفوس شبابنا، ابناء هذا الجيل، لشهد العالم امة العرب، عزيزة كريمة لا تعرف الاستكانة ولا تفرط بكرامتها ولا بعزتها

لنعد الى الماضي القريب، الى ما قبل ١٥ ايار تاريخ دخول جيوش العرب الى فلسطين لانقاذها... لنعد الى تلك المرحلة من الزمن التي لا تزال ماثلة بمجادها بارزة للعيان تثبت بكل وضوح تهاونا وتقصيراً أوديا بفلسطين وبشعب فلسطين...

لنعد الى تلك المرحلة مع بطل القطامون ليحدثنا عن معركة القطامون وغيرها من المعارك ولنسمعه يقول:

«لم يخسر المجاهدون معركة واحدة بالرغم من اننا كنا قلة وكانوا كثرة. كنا لا نملك سلاحا وكانوا يملكون موارد لا ينضب لها معين

ومعركة القطامون؟

وهنا لمعت عينا البطل ابو ديا وقال: لم نخسر هذه المعركة لولا الانكليز... اذ ان استيلاء اليهود على منطقة القطامون يعد انتصار خدعة.. كان عدد المجاهدين بقيادتي لا يتجاوز المئة وستين

— البقية على الصفحة الرابعة —

المصدر: مجموعة الهيئة العربية العليا، أرشيف ذاكرة فلسطين

(تتمة) بطل القطامون

محصورين لا منفذ لنا اليهود من امامنا والانكليز من ورائنا بدباباتهم ومصفحاتهم يرابطون فيما اسموه منطقة السلامة ب. يسمحون لمن يريد من العرب مغادرة المنطقة بالخروج ويمنعون ايا كان من الدخول.. بينما كان عدد اليهود المهاجمين نساء ورجالا يربو على الخمسة الاف الطريق امامهم مفتوحة ومواصلاتهم مع المستعمرات القريبة مؤمنة .. وكان استيلائهم على دير القطامون النقطة الستراتيجية الهامة مما مكن مواصلاتهم وبالرغم من ان بطريرك الروم الارثوذكس سمح لنا بقصف الدير الا انني احجمت لاسباب منها الخوف من ان يؤخذ نسف الدير على غير معناه فتشوه بذلك حركتنا ومنها ايضاً ان نائب البطريرك كان لا يزال في الدير الذي احتمى فيه عدد كبير من النساء العربيات اللواتي لجأن من قرية الملاحة الى الدير ..

في هذه الظروف الصعبة جرت معركة القطامون وكنا وراء مراكزنا لا نتزحزح اربعة ايام بلياليها من ٧ نيسان ١٩٤٨ حتى الحادي عشر منه. لم يعرف المجاهدون اثناءها طعماً للراحة او النوم ومع هذا استطعنا ان نرد هجمات اليهود الواحدة بعد الاخرى، لقد كانوا يهجمون جماعات يريدون الاستيلاء على القطامون بأي ثمن كان لم تردعهم خسارة ولم يوقفهم عدد قتلاهم الذي ناهز الخمسمائة قتيلا .. ومع ذلك بقينا في مراكزنا نمنعهم من الاقتراب.

ولكن الانكليز تدخلوا وفرضوا الهدنة لمدة ساعتين فجاءنا السيد انور نسيبي ينقل الينا ان الانكليز يريدون هدنة لمدة ساعتين ليتمكن اليهود من نقل قتلاهم وجرحاهم واذا لم يقبل المجاهدون فان مدفعية الانكليز مستعدة لضرب مراكزهم المكشوفة. وهكذا لم يكن من بد الا الرضوخ بد.. فرضخنا على مضض وفي فترة الساعتين شن اليهود هجومهم الكبير وتمكنوا من الاستيلاء على القطامون... قتل اكثر المجاهدين وظلت جثثهم في حرج القطمون لم تسلم الينا حتى ان الصليب الاحمر الدولي رفض تسليم القتلى والجرحى ومعركة القسطل ؟

خسرنا معركة القسطل بسبب فقدان الاسلحة والذخيرة، فلو وصلنا من الدول العربية العتاد والذخيرة الذي طلبناه بالحاح لتمكنا من الاحتفاظ بالقسطل وبالتالي لاستسلم المئة الف يهودي في القدس الذين احكمنا طوق الحصار حولهم، ومنعنا عنهم كل اتصال مع تل ابيب او المستعمرات المجاورة... خضنا المعركة والسلاح ينقصنا والعتاد والذخيرة تنضب منا شيئاً فشيئاً دون ان تعوض. وعندما عاد المرحوم عبدالقادر الحسيني الى القدس في السابع من نيسان علم ان اليهود رموا الى المعركة بجميع قواتهم وطائراتهم ايضاً فسارع وخاض المعركة، شبه اعزل من كل سلاح فاستشهد فيها بطلا كريماً ...

اما معركة الشيخ جراح التي حاولت فيها القوات الانكليزية انقاذ القافلة اليهودية فقد كانت ثأراً للمرحوم عبد القادر - وكنا في وضع يسمح لنا بتهديد الانكليز اذا اقترفوا ازاء التهديد امتنع الانكليز عن التدخل وهكذا واجهنا اليهود وجهاً لوجه فصفينا معهم بعض الحساب ..

ولنتحدث الان عن ابراهيم ابو ديا. هو شاب في التاسعة والعشرين من عمره ومن سكان قرية سوريف وقد قاد معركتها الكبرى التي عرفت باسمها وكانت اولى المعارك التي وقعت في فلسطين وانتصر فيها المجاهدون انتصاراً مبيناً.

انتقل المجاهد ابو ديا بعد ذلك الى منطقة القدس وعمل الى جانب المرحوم عبد القادر الحسيني، وقد جرح في معركة القطامون كما جرح في معركة القسطل وقاد معركة الشيخ جراح ومعركة البيت الخالي واصيب اثناءها بجراح ايضاً وقد استسلم فيها اليهود بواسطة الانكليز.

وعلى الرغم من الاصابات الخطرة التي اصيب بها في كل مرة لم يكن يمضي في المستشفى اكثر من يوم واحد يخرج بعده ليقود معركة جديدة وليسجل انتصاراً جديداً على اليهود.

وقد حاولت عصابات الهاغانا الايقاع به بمؤامرات خسيسة ولكنه كان ينجو في كل مرة هازئاً بالموت مؤكداً بهزؤ وسخرية ان رصاص اليهود لا يقتل» اشتهر بقدرة وحنكة كبيرتين في ادارة المعارك وتحويلها كما يريد. والذي يذكر عن ابراهيم ابو ديا انه يذكر الخسارة التي كان يمنى بها في معاركه بدقة دون تقليل او زيادة. وفيق الطيبي

المصدر: مجموعة الهيئة العربية العليا، أرشيف ذاكرة فلسطين